

إسهامات الأستاذ أحمد المتوكل في البحث اللساني العربي المعاصر

أ. نصيرة زيد المال¹

تاريخ الاستلام: 07-02-2018 تاريخ القبول: 29-09-2019

❖ مقدمة: إنَّ البحث اللغوي وفق المناهج الحديثة من الأمور التي تشغل أفكار المعنيين بالدراسات اللغوية، سواء العربية منها أم غيرها، وقد شهدت السنوات المتأخرة نهوضاً بهذا المنحى المنهجي، وألفت كتب ودراسات في العربية تناولت قضايا مهمة متعددة الجوانب من الأصول النحوية واللغوية، وقارنتها بما استجد من أفكار وآراء معظمها مجتلب من الدراسات الغربية فيما أطلق عليه "علم اللغة الحديث" و"اللغويات المعاصرة" في أوروبا وأمريكا.

وكان من شأن عالمنا العربي أن يجد منافع في مثل هذه البحوث وتطبيق ما تضمنته من تفسير وتحليل وتعليل على لغته، وأفاد منها على المستوى النظري والتطبيق العملي للنماذج والأمثلة.

وافترق المعنيون من العلماء والباحثين العرب كأقرانهم الغربيين بين شتى المذاهب والمناهج فمنهم وصفيون تركيبيون، ومنهم معنيون بعلم اللغة التاريخي، ومنهم من فضّل أقرب المناهج ظهوراً، وهو المدرسة التحويلية التوليدية، ووجد فيها ضالته وكان من نتاج ذلك كله، أن أثرت الدراسات

¹ كلية الحقوق بودواو جامعة بومرداس، البريد الإلكتروني: naceramail@gmail.com

(المؤلف المرسل)

العربية في قضايا اللغة على الرغم من تفاوت المناهج وفهمها واضطراب المصطلحات واستخدامها.

وتكمن أهمية البحث في التراث اللغوي العربي ومقارنته بالمناهج اللغوية الحديثة في الكشف عن بعض الأسس والأفكار لهذه المناهج في تاريخ العربية ودراساتها القديمة.

وإن ما نعينه بالتراث اللغوي العربي هو كل هذا الركام المعرفي المتناثر في تاريخ الفكر العربي، والذي وجد من أجل خدمة النص القرآني، ونحن لا نستطيع معرفة النظرية اللغوية العربية بأبعادها الكاملة إلا إذا أعدنا تركيب هذا الفكر اللغوي العربي المتناثر بعد سبر دقيق وعميق، لكل ما قاله العرب حول المسألة اللغوية.

ومن المعلوم أن القدماء قد وضعوا اللبنة الأولى في بناء هيكل الصرح اللغوي الذي مرّ بأطوار متعدّدة إلى أن بلغ ما بلغه بإضافات العلماء ومعالجاتهم تباعاً على مختلف المستويات الصوتية والصرفية والتركيبيّة والدلاليّة، تلك المعالجات والطروحات التي كادت تطابق من بعض النواحي ما بلغه الدرس اللغوي الحديث بعد ذلك التطوّر الذي شمل ميادين الحياة كافة.

ولقد زخرت الدراسات اللغوية عند العرب برصيد معرفي هائل، له مكانته العلميّة في الفكر اللساني المعاصر، وهذا ما أدركه الباحثون العرب المعاصرون ليصدروا بعد سنوات طوال من البحث والدرس ما يسمّى مشروع لسانيات، وهو اتجاه يمكن أن يعدّ إكراماً للجهود التي بذلها القدماء، فقد تركوا آثاراً لا يستهان بها، لها دورها الرائد في رفد الحركة الفكرية عامّة، ويقوم على استرداد هذا التراث لبريقه، من خلال تسليط الضوء على مظاهر المعاصرة في التراث اللغوي العربي، ومن ثمّ تحقيق التّواصل بين الماضي والحاضر "ومن غايات لسانيات التراث وأهدافها قراءة التّصورات اللغوية القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث، والتّوفيق بين نتائج الفكر اللغوي والنّظريات

اللسانية الحديثة، وبالتالي إخراجها في حلة جديدة، تبين قيمتها التاريخية والحضارية¹ وعليه، فإنّ هذا الرابط التّأصيلي بين النّظرية اللسانية الغربية والتّراث اللغوي العربي، لا يزال بحاجة إلى جهود لم يبذل العرب في هذا الجانب إلاّ الشّيء اليسير وذلك لأنّ هذا المشروع النّهضوي لا يخلو من الصّعوبات ومصدر هذه الصّعوبات يتأتى من أمرين:

- ورود نظريات العرب متنوّعة في خبايا التّراث بمختلف أصنافه وأضرابه؛
- عدم وجود فكر عربي حديث يستطيع أن يعيد هيكلة النّظرية اللغوية العربية التّراثية، ومن ثمّ يتمكّن من وضع النّظرية اللسانية الغربية الحديثة في إطار عربي واضح للقارئ.

ولكن هذا لا يعدّم الجهود الجبارة التي بذلها المفكرون العرب، فأثبتوا بالأدلة والبراهين السّبق العربي في هذا المجال، حيث يتمثّل الأساس الذي بنى عليه الغربيّون مستحدثاتهم في مختلف الدّراسات اللغوية، وهي وإن نسبت إلى علماء الغرب في مظهرها الحالي، فإنّ النّاظر في جوهرها يلمح فيها الأصل العربي الذي نمت وتفرّعت من جذوره، والفضل كما يقولون "لمن بدأ الطّريق الشّاق" وغاية لسانيات التّراث هي محاولة بثّ روح الحداثة في التّراث اللغوي العربي مؤكّدة الهوية العربية ومتحدّية لروح العصر، التي تقرّ أنّ التّراث العربي تراث حيّ، يحمل روح المعاصرة التي أثبتتها سبقه للكثير من مبادئ وأسس النّظريات اللسانية الحديثة، ولقد أصدر المفكرون العرب المحدثون مؤلّفات، وقاموا بدراسات تقربّ وجهات النّظر بين النّظرية اللغوية العربية، والنّظريات اللسانية الغربية الحديثة بدعوى التّلاقى الفكري أو السّبق العربي، نذكر منها أعمال الأستاذ الدّكتور أحمد المتوكّل.

1- اللغة العربية والنظرية اللسانية: من المعلوم أنّ اللغة كغيرها من اللغات الطبيعيّة، ستفيد من أيّ فهم جديد يرصد خصائصها ويكشف عن قواعدها ومبادئها ويسهم في حل مشكلات تعليمها وما يرتبط به.

ولقد تطوّرت الدّراسات اللغويّة في العصر الحديث، واستحدثت طرقا جديدة في البحث ممّا نشأ عنه ما يدعى اليوم باللسانيات" لتتوّد ثورة فكريّة بزعامة رائد اللسانيات الحديثة دي سوسور إذ عدت أفكاره فتحا جديدا حين دعا إلى دراسة اللغة لذاتها وأجلها² " فبدأ عهد لساني جديد، ركّز فيه الباحثون في الدّراسات الوصفية التي تصف النّظام اللغوي بعيدا عن تأثير التّطور والتّاريخ والمؤثّرات الاجتماعيّة والتّربويّة والنّفسية، وكل العناصر الخارجيّة الأخرى، وكان من الطّبيعي أن يمتد نوع من الصّلات بين هذا العلم الحديث، وبين علوم اللغة العربيّة بما فيها النّحو.

والذي يعنينا في هذا، هو مدى تأثير اللسانيات الحديثة على النّحو العربي، أو بالأصح مدى تأثره بالنتائج العلميّة التي توصل إليها نحاة العرب القدماء، ولقد شغلت اللغة جانبا كبيرا من تفكير الإنسان منذ فجر التّاريخ، واقتترنت نشأة الخلق والكون بالكلمة، وبّين الدّين قداستها وعرفت الحضارات قوتها، وأجمع البشر على أنّ النّطق هو ميزة الإنسان الذي علمه البارئ البيان وعلم آدم الأسماء.

ولقد كان ابتكار اللغات وأصولها موضع اهتمام بالغ من طرف الفلاسفة والمؤرّخين، وعلماء الطّبيعة وتساءلوا هل هي توقيف من الله أم هي اصطلاح تواضع عليه النّاس فتكلّموا بلسان واحد.

ولقد حاول المحدثون من جديد حلّ ما يكتنف اللغات من لغز، اعتمادا على مراقبة تطوّر اللغة عند الأطفال، وعلى دراسة الشّعوب البدائيّة، وقدموا نظريّات متضاربة، بعضها يجعل اللغة بدأت بمحاكاة الأصوات المسموعة في الطّبيعة وبعضها يعود بها إلى ضرورة التّعبير عن الانفعالات الدّاخليّة من فائض فرح أو

ألم أو استغراب، ومنهم من يراها وليدة حاجة التّواصل عند الإنسان في حياته الاجتماعية.

غير أن الباحثين لما بحثوا في أصول اللغات وجدوا مسائل شديدة التعقيد لا تخضع لوسائل البحث التجريبية، فكادوا يجمعون على أنّ اللغة جاءت نتيجة لمواضعة بشرية، مع الاعتراف بأنّ قضية التّوقيف والاصطلاح تعني فلاسفة اللغة وليست من صميم مباحث النّحو الذي يتناول بالوصف والتّقويم قواعد لغة معينة، قد كمل بناؤها وعرف نظامها.

ولقد اعتنى نحاة العرب قديما بالبحث في أصول اللغة العامّة مع تحديد مفاهيمها الأوّلية فتحدثوا عن الكلام الكامن في الفؤاد، لكن نحويته لا تبرز إلا إذا كان لفظا مركّبا مفيدا بالوضع.

ثم قسموا وحدات الجملة النّحوية إلى الكلم وهو الأسماء والأفعال والحروف. ولذلك بادر الأستاذ أحمد المتوكّل في وضع اللغة العربية في صميم البحث اللساني المعاصر، وذلك في إطار نظري واضح وبمستلزمات العمل العلمي، وفي ذلك عناية باللغة العربية وبالمتكلم العربي، وبيان ذلك أنّ هناك عددا كبيرا من النّماذج النّحوية المقترحة حديثا والتي تقترح باستمرار، وأنّ هذه النّماذج النّحوية متفاوتة في مدى كفايتها، ومدى نضجها العلمي ولحصول الاقتناع بأنّ عملية اختيار نموذج من بين هذه النّماذج، ليس أمرا هيّنا ولا يقوم به أي كان، لذلك من المهم جدا اختيار نموذج يتمتّع بكفاية تفسيرية لمعالجة الظواهر اللغوية العربية وأن يكون هذا النّمودج مندرجا في إطار برنامج علمي واسع له مطامح بعيدة المدى، ولكن يمكن بلوغها.

ويرجع الفضل إلى الأستاذ أحمد المتوكّل في التّعريف باللسانيات الوظيفية ذات البعد التّفسيري واختيار نموذج النّحو الوظيفي المندرج في إطار نظرية لسانية مؤسّسة تداوليا، ولقد كان الوظيفيون يجمعون على أنّ "الوظيفة الأولى للغة هي التّواصل فإنّه من الطّبيعي أن يتجاوز البحث اللساني في إطاره

الوظيفي، القدرة النحوية للغة على القدرة التداولية³ ففهم اللغة فهما عميقا لا يمكن أن يكون إلا عن طريق ربطها بمختلف الأهداف التداولية التي تستعمل من أجلها، وبناء عليه لا يخرج النسق اللغوي عن الاستعمال اللغوي، على الرغم من اختلاف النسق وتمييزه عن الاستعمال، إذ لا يمكن تجريد اللغة عن أخص خصائصها.

ومن المعلوم أن ما ساد من وظيفيات في المغرب، وفي البلاد العربية الأخرى كان يتعلّق بوظيفية مارتني ذات البعد الوصفي فقط، وبفضل مجهودات الأستاذ المتوكل واجتهاداته توصّلنا اليوم إلى الحديث عن لسانيات وظيفية تداولية، وعن نموذج نحوي وظيفي.

2- اللغة العربية والنحو الوظيفي:

2- 1: مفهوم النحو الوظيفي: يعدّ النحو الوظيفي أكثر النظريات الوظيفية التداولية استجابة لشروط التّظهير من جهة ولتقتضيات النمذجة للظواهر اللغوية من جهة أخرى.

وبعدّ الاتجاه الوظيفي ثالث اتّجاهات البحث اللساني المعاصر، تعود أصول هذا الاتّجاه إلى جملة من الأعمال اللسانية الحديثة، كمدرسة براغ وأعمال اللسانيين التشيكيين المعروفة بالوجهة الوظيفية للجملة، والمدرسة النسقية (لندن).

وقد شكّلت اللسانيات الوظيفية أحد أشكال التّطوّرات المتلاحقة التي عرفتھا المدرسة البنوية ممثلة بالأب الروحي سوسور، الذي ركز على وظيفة اللغة باعتبارها وسيلة من وسائل التّواصل إن لم تكن أهمّها على الإطلاق، وهو الجانب الذي أولاه أتباعه أهميّة خاصّة من خلال دراساتهم للغة، والبحث عن الوظائف التي تؤدّيها عناصرها وأدواتها التعبيرية، بيد أن أبرز الدّراسات والتّطوّرات التي عرفها هذا الاتّجاه، شكّلتها حلقة براغ بفضل أعمال تروبتسكو Troubetzkoy _

ومارتينيه A- Martinet _ وجاكبسون Jakobson - وغيرهم. فكانت مفاهيم وبحوث هذه المدرسة منطلقا لبحوث ودراسات أخرى استثمرت مفاهيم هذا الاتجاه.

ولقد نشأ المنحى الوظيفي في العالم العربي بعد نقل نظرية النحو الوظيفي من جامعة أمستردام كما صاغها سيمون ديك Simon Dik ومجموعة من الباحثين زملائه، إلى المغرب الأقصى في السنوات الأولى من الثمانينات على يد اللساني الدكتور أحمد المتوكل، أستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط، " ولم يكن نقل النظرية إلى المغرب نقلا مجردا ، وإنما كان نقلا مربثلا مراحل: مرحلة الاستنبات ومرحلة التأصيل ومرحلة الإسهام والتطور⁴ في المرحلة الأولى أخذت نظرية النحو الوظيفي حين نقلت إلى المغرب مكانها بين الاتجاهات، اللسانية التي كانت سائدة آنذاك وعلى رأسها الاتجاه البنوي Structuralism والاتجاه التحويلي التوليدي Grammar Transformational Generative بالإضافة إلى الدرس اللغوي العربي القديم نحوه وبلاغته إلى غير ذلك، ثم انتقل إلى مرحلة التأصيل، حيث تم ربط نظرية النحو الوظيفي بالفكر اللغوي العربي القديم "على أساس أن الفكر اللغوي العربي القديم أصل لمنحى وظيفي عربي، يتمدد بواسطة الدرس اللساني الوظيفي الحديث، في المرحلة الثالثة، شرع اللسانيون الوظيفيون المغاربة تحديدا، في الإسهام في تطوير نظرية النحو الوظيفي نفسها، فابتدع المتوكل "نموذج نحو الطبقات القالبي 2003 ثم أضاف نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسع 2010، بالإضافة إلى إسهامات عدد من الباحثين الآخرين في إضافة مكونات إلى نماذج من النظرية كما فعل البوشيخي الذي أضاف المكون التخيلي 1998، إلى مكونات نموذج مستعملي اللغة الطبيعية في إطار الدفاع عن أطروحة، أن الملكة الإبداعية ملكة من ملكات القدرة التواصلية العامة، يتم تفعيلها بدرجات متفاوتة بين مستعملي اللغة الطبيعية⁵ وهكذا بعد أن استتب للمنحى الوظيفي الأمر في البلاد

العربية وتحديدًا في المغرب الأقصى، شرع اللسانيون المغاربة بزعامة الدكتور أحمد المتوكل في وضع مشروع متكامل ذي ثلاث اتجاهات رئيسة كبرى: "أولاً اللسانيات واللغة العربية، ثانياً اللسانيات وقضايا المجتمع، وثالثاً اللسانيات والفكر اللغوي القديم"⁶ ويورد كثير من الباحثين أنه حينما تلقى الدارسون العرب المحدثون الوافد اللساني الحديث كانوا تحت وطأة فكرة كبّلت الحركة العلمية عندهم وجعلتهم يتوقّفون عن التّجديد والإبداع، هذه الفكرة مفادها التّعصّب للقديم والإيمان بقناعة " ليس في الإمكان أبدع مما كان، وما ترك الأوّل للأخر شيئاً، ممّا جعلهم يصرفون همهم نحو العناية بالمتون شرحاً وتفسيراً وفهماً واستظهاراً، مبتعدّين عن التّطوير، وعن المراجعة، لأنّ ما قدّمه الأوّل قد نضج واحترق، ولا يملك المتأخّر إلّا حقّ التّمثّل والاحتذاء"⁷ وبمجيء الدّرس اللساني الحديث تغيرت الوجهة، لكن بدل أن يكون هناك توجه نحو بناء نظرية لسانية عربية تستمد مشروعيتها من الاستفادة من الموروث التراثي متجاوزة الهفوات التي وقع فيها السلف مستأنسة بالمعطيات العلمية المنهجية والموضوعية التي يوفرها الدّرس اللساني الحديث، ولذلك حدث شرخ كبير بين الباحثين العرب؛ من مناصر للوافد الغربي لا يرى بديلاً عنه، ومن ملتزم بالفكر اللغوي العربي القديم، لا يرى فيه زيادة لمستزيد...

وبعد مسيرة طويلة من الأخذ والردّ بدأت العقول تتوجّه نحو حلّ وسط يزواج بين معطيات الحديث واجتهادات القديم، وممن مثّل هذا الاتجاه خير تمثيل في المغرب العربيّ لسانيّون أمثال :عبد الرحمن الحاج صالح، عبد القادر الفاسي الفهري، أحمد المتوكل، وغيرهم كثير.

وعليه، فإنّ أيّ باحث ملزم بتبني إطار نظري، يشكّل بكلّ خلفياته وفرضياته مرجعاً أساساً له يتبنّى أحمد المتوكل النّحو الوظيفي إطاراً نظرياً، وهو اختيار

تحكمه مجموعة من المسوّغات عبّر عنها بالقول: "يعتبر النّحو الوظيفي الذي اقترحه سيمون دك في السّنّوات الأخيرة في نظرنا النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الأكثر استجابة لشروط التّنظير من جهة، ولقتضيات النّمذجة للظواهر اللغويّة من جهة أخرى، كما يمتاز النّحو الوظيفي على غيره من النّظريات التّداوليّة بنوعيّة مصادره، فهو محاولة لصهر بعض مقترحات نظريات لغويّة: النّحو العلاقي نحو الأحوال الوظيفيّة ونظريات فلسفيّة: نظريّة الأفعال اللغويّة أثبتت قيمتها في نموذج صوري مصوغ حسب مقتضيات النّمذجة في التّنظير اللساني الحديث"⁸ وتوصف هذه الوظائف كلما دعت الحاجة إلى ذلك تحليلات ومفاهيم من الفكر اللغوي العربي القديم نحوه وبلاغته، ولذلك وضع المتوكّل لبنة أولى لمنهجية تمكّن من إعادة قراءة الفكر اللغوي العربي القديم وكل فكر لغوي قديم بصفة عامّة وإدماجه في الفكر اللساني الحديث، واستثماره في وصف اللغات الطّبيعيّة بما فيها اللغة العربيّة وما يتفرّع عنها يقول المتوكّل: "ومن قوانين منطق التّنظير في اللسانيات (وفي غيرها من العلوم) أن يتلاءم بناء النّحو وكيفيّة اشتغال مكوّناته في نظريّة ما، والمبادئ العامّة المعتمدة في هذه النّظريّة وهو ما نجده حاصلًا بالفعل، إذا نحن فحصنا النّظريات اللسانية الصّوريّة والنّظريات اللسانية الموجهة تداوليا أو وظيفيا"⁹ ويقول أيضا: "والوظيفية التّداوليّة" المحور" تستند إلى المكون الدّال على ما يشكل "محط الحديث" أي المكون الحامل لمعلومة من المعلومات "المشتركة" والوظيفية التّداوليّة "البؤرة" تستند إلى المكون الحامل للمعلومة "المجهولة" أو إلى المكون الحامل للمعلومة المتنازع في ورودها"¹⁰.

ففي النّظريات الأولى التي تقتضي وظيفة التّواصل أو تمنحها وضعًا ثانويًا يحتل المكون التركيبي المقام المركزي في النّحو وتشتغل أولياته في استقلال تام عن المكونين الدّلالي والتّداولي، في حين تشكّل الدّلالة والتّداول المكون المنطلق الذي على أساسه يشتغل المكونان التركيبي والصّوتي في نظريات الفئة الثّانية.

2- 2: ضبط حدود التوجه الوظيفي: لعلّ أوّل ما يمكن أن يبدأ به هو تمييز النظريّات الوظيفيّة من غير الوظيفيّة، لأنّه الفصيل الذي يعطي هذا التّوجه أحقيّة التّمييز، ويجعل الرّؤية واضحة من بدايتها، فما هو الضّابط الدّقيق الذي يجعلنا نقول عن توجّه ما بأنّه توجّه وظيفي؟
ومن هذا المنطلق يورد الباحث يحي بعيطيش أنّه، حتى نعدّ نظريّة أو توجّها ما توجّها وظيفيا يجب:

1- اعتبار الوظيفة التّبليغيّة الوظيفة الأساس للغة، وأنّ تلك الوظيفة تعكس إلى حدّ كبير الخصائص البنيويّة للتراكيب اللغويّة: الصّوتيّة والصّرفيّة، والمعجميّة والتّركيبيّة في الجملة أو منظورا إليها على أنّها مجموعة خصائص تسهم في تحديد البنية التّركيبيّة للجملة أو النّص.

2- لا يعدّ النّمودج النّحوي نموذجا وظيفيا إلّا إذا أفرد فيه مستوى خاصّ للجوانب التّداوليّة، حيث يسهم بمعّية الجوانب الدّلاليّة في توفير كل المعلومات التي تحتاجها القواعد التّركيبيّة المحددة لرتبة المكوّنات، وحالاتها الإعرابيّة....¹¹.

وفي ضوء هذين الأساسين يمكن التّفريق بدقّة بين النّحو الوظيفي والنّحو غير الوظيفي؛ فالنّحو الوظيفي هو الذي لا يقتصر على البحث عن الدّور الذي لا تؤدّيه الكلمات أو العبارات في الجملة أي الوظائف التّركيبيّة لأنّ هذه الوظائف لا تمثّل إلّا جزءاً من كلّ تتفاعل مع وظائف أخرى مقاميّة الوظائف الدّلاليّة والتّداوليّة وعليه، فإنّ النّحو الوظيفي هو ذلك الجهاز المركّب من محصلة كل هذه الوظائف (التّركيبيّة الدّلاليّة والتّداوليّة).

أما النحو غير الوظيفي فهو النحو الذي يكتفى فيه بتحديد وظائف
بنية الجملة التركيبية، وقد يتعدى هذا إلى الاهتمام بتمثيل الوظائف
الدلالية، ومن هذا المنطلق لا

يمكن عدّ الوظيفية الفرنسية، كما يورد بعيطيش، بزعامة أندري مارتني
من النحو الوظيفي في شيء؛ ذلك أنّها لم تدرج في وصفها مستوى لتمثيل
الخصائص المقامية التداولية، بل ركزت على الأشكال البنيوية ذات الطابع
المادّي الذي يسهل حصره وضبطه وتقنيته ودراسته دراسة علمية موضوعية
يقول بعيطيش " : ويترب على ذلك إبعاد نظرية النحو الوظيفي أو علم
التركيب الوظيفي *syntax fonctionnelle* لمارتني مثلاً من النماذج النحوية
الوظيفية لأنها ... لم تدرج في وصفها مستوى لتمثيل الخصائص المقامية
التداولية، فهي على غرار الأنحاء البنيوية التي ضحت بالأساسين معاً من
أجل التفرغ كلية للخصائص البنيوية الشكلية¹² وهكذا حاول المتوكّل
تقديم تصوّر للتفريق بين التوجّه الوظيفي والتوجّه غير الوظيفي مركزاً
على بيان أهمّ نقاط الائتلاف والاختلاف، مؤكّداً على أنّ ما يخالف بين
هذين التوجّهين أكثر ممّا يؤالف.

3- إسهام الأستاذ أحمد المتوكّل في إبراز الفكر اللغوي العربي القديم: بدأ
الأستاذ أحمد المتوكّل مشروعه اللساني بمحاورة النتاج اللغوي العربي القديم
ومن البحث في التراث إلى النماذج اللسانية المعاصرة، نجد الأستاذ أحمد
المتوكّل مجدداً ومبدعاً في أعماله حول التراث اللغوي العربي القديم، وعلى
أساس غيره من المهتمّين بهذه الإشكالية، لم يقف المتوكّل عند ذلك النوع من
القراءات التمجيدية للتراث وبالمقارنة مع واقع الفكر اللساني العربي الحديث
فإنّ أعماله تعدّ بمثابة رد الاعتبار للفكر اللساني العربي القديم، هذا الفكر الذي
أنتج بالأمس قممها ليس لها ما يضاهيها اليوم في ثقافتنا اللغوية الحديثة.

وبالنظر لهذه القيمة المزدوجة، فإن أعمال المتوكل نموذج متميز للأعمال اللسانية العربية التي زاوجت بنجاح وفعالية بين البعدين العام والخاص في الممارسة اللسانية مقدّمة الدليل على إمكانية تخطي بعض الحواجز الفكرية التي ما فتئ بعض دعاة الانغلاق يرددونها حول عدم جدوى اللسانيات باعتبارها في نظرهم فكرا مستوردا لا يصلح البتة للغة العربية، وفي هذا الصدد يقول المتوكل: "عهدنا أن يكون المتصدّي لدراسة النحو العربي أحد ثلاثة: مؤرخا لمدارسه أو أعلامه أو عارضا يخبر عن فحوى كتبه مفصلا وشارحا ومنتقدا أو مقربا يروم تحديثه بتبسيطه لتعلّمي اللغة العربية، بعيدا عن هذا كله وفي الخط نفسه الذي رسمناه وسرنا فيه وطبقا للنهج الذي انتهجناه في قراءة التراث اللغوي، نقدّم هذا العمل مثالا ملموسا لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين النحو العربي والفكر اللغوي العربي بوجه عام، والنظريات اللسانية الحديثة وشاهدا على إمكان مد الجسور بينه وبين نظرية لسانية بعينها نظرية النحو الوظيفي في أحدث نماذجها مما يتيح المقارنة المنهجية بين تناول النحاة لعدد من الظواهر اللغوية، ومعالجة نحو الخطاب الوظيفي للظواهر نفسها مقارنة يمكن الخروج منها بمقارنة موحدة واحدة تكفل وصف وتفسير لا تلك الظواهر فحسب، بل غيرها كذلك لا في اللغة العربية وما يتفرّع عنها فحسب، بل كذلك في لغات أخرى قد تُنأمطها، وقد تنتمي إلى نمط غير نمطها^{3 1}".

وعليه، يتبيّن أنّ الدكتور أحمد المتوكل كان معنيا بالفكر اللغوي العربي القديم مضمونا ومصطلحا، مضمونا لأنّه جعله مكوّنا من مكوّنات الفكر اللغوي العالمي عاقدا حوارا بينه وبين الفكر اللساني المعاصر على أسس منهجية، ولأنّه رصد مراحل تطوره ولأنّه استثمره في معالجة قضايا اللغة العربية معالجة حديثة، إذ وضع قيد التنفيذ مشروع نحو اللغة العربية الوظيفي وتناول قضايا اللغة العربية المعجمية والتركيبيّة والدلاليّة تناولا تداوليا، وأفرز قضايا جديدة في اللغة العربية واستحدث أسلوبا لسانيا عربيا جعل اللغة العربية قادرة على

مواكبة التطورات العلمية المتنوعة كما استحدثت مصطلحات جديدة للتعبير عن المفاهيم الجديدة، وتحفل كتبه بالمصطلح العربي القديم من قبيل المبتدأ والفاعل والمفعول والإعراب وغيرها، ولقد بينت تجربته الرائدة إمكان الاستفادة من الفكر اللغوي العربي القديم مضمونا ومصطلحا، وأصبح الوظيفيون العرب يتداولون مصطلحات عربية قديمة بمفاهيم جديدة دون التباس أو سوء فهم وأمّا الالتباس أو سوء الفهم فقد يعاني منه غير المختص، وهذا شأن يتعلق بالمتلقي لعدم انتمائه إلى مجال الخطاب ولا يتعلق بالمنتج.

خاتمة: يمكن القول في الختام إن تحديد الموقف من تراثنا في مجال علوم اللغة العربية لا ينبغي أن ينطلق فقط من شعور عاطفي يقتصر على تمجيد كل ما قاله علماء العربية، بل لا بدّ من كشف القيمة العلمية لتراثنا في مجال علوم اللغة، وعلم اللغة العام، حتى لا يكون كلامنا تبجّحا لا سند ولا دليل عليه؛ فيجب علينا إذن التسلّح بالعلم وأحدث منجزاته لنفهم أولا تراثنا في مجال علوم اللغة العربية بشكل علمي صحيح، وبعد أن نفهم تراثنا بشكل علمي واضح نستطيع أن ندافع عنه أمام أولئك الذين يتهجمون عليه، وينتقصون من قيمته العلمية، أو ينفون عنه تلك الصّفة إطلاقا ونستطيع كذلك أن نعرف العالم به، ونسهم ايجابيا في تطوير الحضارة الإنسانية المعاصرة، بالإسهامات العلمية جديدة نضيفها إلى علم اللغة الحديث.

ويرجع الفضل إلى الأستاذ أحمد المتوكل في تأسيس مدرسة لسانية وظيفية عربية، وفي تكوين أطر قادرة على العمل بكفاءة علمية لخدمة اللغة العربية وقضاياها، وعلى المعنيين أن يقدموا الدّعم اللازم لتشجيع البحث العلمي وفتح الأفاق أمام الباحثين، فنحن نحتاج إلى من يستثمر معطيات اللسانيات الوظيفية العربية في بناء المعجم، وفي تحليل الخطاب، وفي مجال التواصل وفي مجال تعليم اللغات وفي مجال الترجمة الحاسوبية.

المصادر والمراجع:

- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسات نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ط1. المغرب: 1998، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص 92.
- هدى صلاح الدين، تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب الرباط: 2015، ط1 دار الأمان للنشر، ص 24.
- حافظ اسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، لبنان: 2009، ط1. دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 345-346.
- محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ط1. الرباط: 2014، منشورات ضفاف، ص 15.
- محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 15.
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- الزايري بودراما، النحو الوظيفي والدرس اللغوي العربي، دراسة في نحو الجملة أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر- باتنة، 2013- 2014، ص1.
- يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، ص 41.
- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1. المغرب: 1985 منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ص 9.
- أحمد المتوكل، التركيبات الوظيفية، قضايا ومقاربات، ط1. المغرب: 2005، دار الأمان للنشر، ص 9.
- أحمد المتوكل، من قضايا الرباط في اللغة العربية، ط1. المغرب: 1986 منشورات عكاظ، ص 21.
- يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، الجزائر: 2006، دكتوراه دولة في اللسانيات الوظيفية الحديثة، جامعة منتوري، قسنطينة، ص 57.
- يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، ص 41.
- أحمد المتوكل، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، ط1. المغرب: 2009، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص 1.

الهوامش:

- ¹ - مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسات نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ط1. المغرب: 1998، دار الكتاب الجديدة المتحدة ص 92.
- ² - هدى صلاح الدين، تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، ط1. الرباط: 2015، دار الأمان للنشر، ص 24.
- ³ - حافظ اسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، لبنان: 2009، ط1. دار الكتاب الجديد المتحدة ص 345-346.
- ⁴ - محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم ط1. الرباط: 2014، منشورات ضفاف، ص 15.
- ⁵ - محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم ص 15.
- ⁶ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁷ - الزايري بودرامة، النحو الوظيفي والدّرس اللغوي العربي، دراسة في نحو الجملة أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر - باتنة، 2013-2014، ص 1.
- ⁸ - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1. المغرب: 1985 منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ص 9.
- ⁹ - أحمد المتوكل، التراكيب الوظيفية، قضايا ومقاربات، ط1. المغرب: 2005 دار الأمان للنشر، ص 9.
- ¹⁰ - أحمد المتوكل، من قضايا الرباط في اللغة العربية، ط1. المغرب: 1986 منشورات عكاظ، ص 21.
- ¹¹ - يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، الجزائر: 2006، دكتوراه دولة في اللسانيات الوظيفية الحديثة، جامعة منتوري، قسنطينة، ص 57.
- ¹² - يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، ص 41.
- ¹³ - أحمد المتوكل، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي ط1. المغرب: 2009، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص 1.

